أعمال الإعانة التي يراد بها وجه الله وحده ويزدلف بها إليه فالعاكف في المساجد وفي مواضع العبادة
من أجل الله ومن أجل عبادته وحده وتعظيمه عابد له تعالى بذلك والعاكف على القبور والأبدان أو الخادم
لها المريد بالعكوف عليها وبخدمتها وسدانتها تعظيمها والتقرب إليها ونيل شفاعتها أو رضاها عابد لها
فعمل هذا مشرك بالله في العبادة بلا ريب. وشرح هذا الكلام أن تعالى عكوف العاكفين على الأضرحة
والقبور والمقامات باسم الخدمة والسدانة إما أن يريدوا به أصحاب القبور من المشايخ
الميتين وغيرهم ويريدوا به رضاهم والتقرب إليهم والتعظيم لهم وإما أن يريدوا به خدمة
من يزورون القبور من الأحياء وعلى هذا التقدير أيضا إما أن يقصدوا بخدمة الزوار
وإما أن يريدوا بها أن ينالوا أجرهم وجزاءهم الدنيوي
وإما أن يريدوا بها أن يرضوا الأموات المزورين ويتقربوا إليهم بخدمة زوارهم
لتنالهم بذلك شفاعتهم وعطفهم وعنايتهم فإن أرادوا الأول أو الاحتمال
الثاني من التقدير الثاني كانوا مشركين بربهم متقربين إلى خلقه بأعمالهم التي لا يتقرب
بها إلا إلى الله وكانوا مثل من صلى وصام وتصدق وذبح وعمل الخير مريدا بأعماله
أن ينال رضا بعض المخلوقين، وهذا هو الشرك الصريح الذي لا ريب. ولا يختلف السلوك
في أن من عمل عملا من أعمال البر كالإحسان والتصدق والعطف والرحمة
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكالصلاة والصيام والحج والنذر وتقديم القرابين مريدا
بذلك أن يرضى أحد الأنبياء أو الأئمة أو أحد المشايخ والصالحين أو مريدا أن يتقرب إليهم
بها وأن يرضوا عنه ويحبوه من أجلها: لا يختلف السلوك في أن من فعل ذلك مريدا
ما ذكر كان مشركا كافرا بربه عابدا غيره تعالى. وإذا كان هذا لا ريب فيه ولا خفاء
فيه ريب ولا خلاف في أن مثل من جعل من نفسه خادما لزوار ضريح أحد الأموات والمقامات
لينال بخدمته رضا صاحب ذلك الضريح وعطفه وعنايته، وهذا لأنه لا خلاف بين
المسلمين في أن من طلب جزاء عمل من أعماله الدينية الخيرية الأخروية من غير الله وتقرب
به إلى غير الله كان ظالما فمن حج بيت الله وأراد بحجه إرضاء الرسول أو جزاءه
منه أو من غيره حيا كان أو ميتا كان مشركا بربه ومن صلى أو صام وأراد بصلاته أو
بصيامه أن يرضي مخلوقا أو أن ينال جزاءه من مخلوق كان أيضا مشركا بربه، ومن أحسن إلى
الناس وبرهم وعطف عليهم ورحمهم وعمل الخير والمعروف لهم وفيهم وهو أراد بأعماله أن يرضي
إنسانا حيا أو ميتا وأن يأخذ جزاءه وأجره منه كان أيضا مشركا بربه بلا خلاف. فهذه
حقائق أولية لا سبيل إلى النزاع والخلاف. والقرآن كله أوامر صريحة بأن تكون العبادة
كلها له وحده ونواهٍ صريحة عن أن يعبد سواه وأن يراد مخلوق بعمل من الأعمال وعبادة من العبادات
. وبهذا إذا كانوا يريدون بخدمتهم وسدانتهم أصحاب القبور التي يسدنونها ويخدمونها
ويعكفوا عليها، وإما أن كانوا يريدون بها الجزاء الدنيوي الذي ينالونه من زوار القبور
هذه القبور والأضرحة - أي العاكفون عليها باسم الخدمة والسدانة فهم يحتالون على أموال الناس
وليأخذوا منهم بهذه الوسيلة - فلا ريب في أن عملهم هذا منكر في الشرع والعقل والذوق
والأدب العام، فلا يختص بما يستطيعون أن يزعموا أنه من وسائل المعيشة المشروعة الصحيحة المرضية في
الإسلام المأمور بها أن يقيم المسلمون على القبور ويعكفوا عليها ويخدموها ويسدنوها ويعيشوا باسم
وليستولوا على ما عكف الاستيلاء عليه من أموال الجماهير ومغفليهم بل ولا يختص عرفا أو قانونا
في الدنيا يستحسن هذا الأسلوب من أساليب طلب العيش: فخدمة القبور
وسدانتها على هذه الاحتمالات والوجوه محرمة منكرة ولا وجه لها: فإن جادلوا في الغرض أن يجوز
من هذه العقيدة وأن يخلصوا من هذه الحجج زاعمين أن هنا لله فرضا آخر غير ما ذكرنا ليس
فيه من الباطل والخطأ ما ذكرنا فقالوا: إن من عكفوا على قبور الأنبياء والصالحين وعكفوا على
خدمتها وسدانتها إنما يريدون بذلك التقرب إلى الله والعمل لما يرضيه لأن خدمة القبور من جملة
من يزورون عمل من أعمال البر والمعروف التي يتقرب بها إلى الله ويراد بها وجه الله
قيل هذا باطل بلا ريب لأن العاكفين على القبور وعلى خدمتها وخدمة من يزورها لا يريدون الإحسان